



سِتَّةٌ مِثْلُ مَا تَكُنْ إِذَا الْإِمَامُ مُسَلَّمٌ ①٤

حُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

تأليف
عبد المالك بن أحمد رمضان

إِذَا الْإِمَامُ مُسَلَّمٌ

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

حُسْنُ الظَّنِّ بِالْأَكْثَرِ

(ح) عبد المالك بن أحمد رمضاني . ١٤٣٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رمضاني، عبد الملك أحمد
حسن الظن بالناس . / عبد الملك أحمد رمضاني . - المدينة
المنورة، ١٤٣٢هـ .

٦٤ ص ، ١٢ × ١٧ سم

ردمك : ٧ - ٨٨٣١ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - الأخلاق الإسلامية ٢ - الفضائل الإسلامية أ . العنوان

١٤٣٢ / ١٠٧١٢

ديوي ٢، ٢١٢

رقم الإيداع : ١٤٣٢ / ١٠٧١٢

ردمك : ٧ - ٨٨٣١ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١٢م

دار الإمام المسلم للنشر والتوزيع

الملكه الجهه السعوديه . المدينه المنوره

جوال : ٠٠٩٦٦٥٥٥٩٦٦٤٠٠ - ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٦٦٤٠٠

البريد الإلكتروني : DarAlimamMuslim@Gmail.com

حُسْنُ الظَّنِّ بِالْإِسْلَامِ

تأليف
عبد المالك بن أحمد رمضان

كَذَا إِذَا الْأُمَامُ مَسَلُوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَاتُ

الحمدُ لله ربَّ العالمين، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده
لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

في خضمِّ هذه الحياة التي يعيشها النَّاسُ وهم يُعاملُ
بعضُهم بعضًا، يحتاجُ كلُّ منهم إلى خُلُقٍ يَتِمَكَّنُ من خلاله
أن يُعاشِرَ وأن يُعاشَرَ، وهم في حركةٍ دائمةٍ مع غيرهم:
فمع الوالدين، ومع الأبناء والإخوة، ومع الفقير واليتيم،
ومع الزَّوجاتِ، ومع الجارِ والصَّاحبِ، ومع الشَّريكِ في
العملِ أو التَّجارةِ، ومع المسلم والكافر، كلُّ هؤلاءِ
وغيرهم كثيرٌ يُطلبُ منَّا أن نُعاشِرَهم بخُلُقٍ يُناسبه.

قال اللهُ تعالى في آيةِ الحُقوقِ العشرةِ: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا
تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ

كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿ [النساء: ٣٦].

وَأَخْلَاقِيَّاتُ الْبَشَرِ مُخْتَلِفَةٌ وَمُتَفَاوِتَةٌ، وَأَهْوَاؤُهُمْ لَا تَكَادُ تَكُونُ مُنْضَبِطَةً، لَكِنَّ حَاجَةَ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ أَمْرٌ لَا مَفَرَّ مِنْهُ، فَالْمُعَاشِرَةُ - قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ - لَا يَسْلَمُ مِنْهَا أَحَدٌ، لِذَا احتَاجَ الْمَرْءُ أَنْ يَضْبِطَ نَفْسَهُ وَيَجَاهِدَهَا عَلَى أَنْ يُؤَدِّيَ مَا عَلَيْهِ وَيَقْضِيَ حَاجَتَهُ بِلَا ضَرَرٍ وَلَا ضِرَارٍ.

وَإِذَا كَانَ لَنَا أَنْ نَعْتَرِفَ بِأَنَّنَا نُعَانِي مِنْ نَقْصِ خُلُقِيٍّ بَيْنٍ، فَحُرِّيٌّ بِكُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَعَالِجَ ذَلِكَ بِالْمُرَابَطَةِ عَلَى حِصْنِ خَلْقِهِ مِنْ ثَلَاثَةِ ثُغُورٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ مَا كَانَ لَهُ مِنْ خُلُقٍ طَيِّبٍ جِبَلَةً حَمَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ كَمَا فَعَلَ أَشْجُّ عَبْدِ الْقَيْسِ رحمته الله، فَقَدْ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: بَلِ اللَّهُ جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٥٢٢٥) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِيهِ.

فَبِهَذَا الْحَمْدِ يَحْفَظُ اللَّهُ لَهُ هَذَا الْخَلْقَ وَيَزِيدُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿لَيْنُ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وَيَنْجُو مِنَ الْغُرُورِ بِمَدْحِ نَفْسِهِ بِهِ، فَأَكْثَرُ الْخَلْقِ يُحْسِنُونَ ظُنُونَهُمْ بَأَنْفُسِهِمْ وَيَعْتَقِدُونَ فِيهَا الْخَلْقَ الْكَامِلَ، مَعَ أَنَّهُ مَا كَانَ لَهُ مِنْ أَدَبٍ فَإِنَّهَا هُوَ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

الثَّانِي: يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ تَضْيِيعِ مَا لَهُ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ بِمُخَالَطَةِ قُرْنَاءِ السُّوءِ، فَكَمْ مِنْ فِطْرَةٍ تَحَرَّفَتْ عَلَى صَاحِبِهَا بِسَبَبِهِمْ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٣٣) وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٧٨) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٩٢٧).

الثَّالِثُ: مَا كَانَ فِيهِ مِنْ نَقْصٍ خُلُقِيٍّ، فَعَلَيْهِ بَاشْتَيْنِ:
١- أَنْ يَفْزَعَ إِلَى رَبِّهِ دَاعِيًا إِيَّاهُ أَنْ يُحَسِّنَ لَهُ خُلُقَهُ؛ فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَدْعُو اللَّهَ بِذَلِكَ وَهُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى

له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فروى أحمد (٦٨ / ٦) بسند صحيح عن عائشة قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خُلُقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي»، هذا دُعاءُ الكامل، فكيف بالناقص؟!

٢- أن يستعين بالله لتعويد نفسه على المكارم التي تستصعبها نفسه، وذلك من جهتين:

الأولى: جهة التَّعَلُّم؛ لأننا نَعترفُ بأننا نُعاني من تَبَايُنِ خُلُقِيٍّ بسببِ الجَهْلِ، وإِصْلَاحِ هَذَا الخُلُقِ إِنَّمَا يَتِمُّ بِالْعِلْمِ، والعِلْمُ الْمَقْصُودُ هُوَ عِلْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا التَّجَارِبَ الْبَشَرِيَّةَ.

والثَّانِيَةُ: جِهَةُ الْعَمَلِ، وَذَلِكَ بِمُحَاسِنَتِهَا وَتَطْوِيعِ النَّفْسِ لَهَا.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَمَعَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ؛ وَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ» رَوَاهُ الْخَطِيبُ فِي «تَارِيخِهِ» (١٢٧ / ٩) وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» (٣٤٢).

هَذَا كَلَامٌ عَامٌّ عَنِ الْأَخْلَاقِ، وَأَمَّا مَوْضُوعُ حُسْنِ الظَّنِّ

فهو بابٌ عَظِيمٌ من أَبْوابِ الخُلُقِ الحَسَنِ؛ إذ ما يَزَالُ
صاحِبُهُ مُرتاحَ البالِ نَظِيفَ القلبِ، قد تنَقَّى من الوَساوسِ
المنغصَّةِ، وتَصَفَّى مِنَ الهَواجِسِ الممَحَّصَةِ، يُحِبُّ الخَيْرَ
لِإِخوانِهِ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا.

وإن اِختَفَى هَذَا الخُلُقُ من صاحِبِهِ حَلَّ محلَّهُ سُوءُ الظَّنِّ،
خُلُقٌ مُبْغَضٌ من جَمِيعِ الخُلُقِ، فبِسَبَبِهِ حُبَسَ يوسُفُ عليه السلام
ظُلْمًا، وَقَالَ فِيهِ مَنْ هُوَ أَحَقُّ مِنْهُ بِالتُّهْمَةِ: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ
بَاهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، مع أَنَّهُ
ما أَرَادَ بِأَهْلِ المَلِكِ سُوءًا قَطُّ، وما قَالَتْ ما قَالَتْ إِلَّا
لِعِلْمِهَا بِأَنَّ التُّهْمَ تَعِيشُ فِي القُلُوبِ المَشْحُونَةِ بِالظُّنُونِ،
وبِسَبَبِهِ رُمِيَ أُمُّنا الصِّدِّقَةُ بِنْتُ الصِّدِّيقِ عليه السلام بِالإِفْكِ
المُبِينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ [النور: ١١]
وَقَالَ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ
خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وبِإِشْهَارِ سَلاحِ سُوءِ الظَّنِّ حَاولَ قَوْمُ فِرْعَوْنَ صَدَّ

النَّاسَ عَنْ دَعْوَةِ مُوسَى ﷺ بِادِّعَاءِ أَنَّهُ مَا أَرَادَ إِلَّا أَخَذَ
أَرْضَهُمْ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ النَّفُوسَ تَسْتَجِيبُ لِمِثْلِ هَذِهِ التُّهْمَةِ
وَتَقْوَى ظُنُونُهَا فِيهَا لِمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ حُبِّ الْأَوْطَانِ،
قَالَ ﷺ: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ۝۱۰۹ ﴾ يُرِيدُ
أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩ - ١١٠].

وَلَمَّا كَانَتْ النَّفُوسُ تُزَاحِمُ عَلَى الرُّتَبِ الدُّنْيَوِيَّةِ؛ فَقَدْ
جَهَدَ الْمُشْرِكُونَ أَنْفُسَهُمْ لِإِسْقَاطِ رِسَالَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَمَا فَعَلَ قَوْمُ نُوحٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ ۝۲۴ ﴾
[المؤمنون: ٢٤]، فَطَعَنُوا فِي نَبِيِّهِ وَهُوَ بَرِيٌّ.

وَلَنْ تَثْبِتَ هَذِهِ التُّهْمَةُ فِي قُلُوبِ قَوْمِهِ إِلَّا إِنْ دَعَمَهَا
سَوْءُ الظَّنِّ، وَلِذَلِكَ ابْتَعَدَ الْأَنْبِيَاءُ ﷺ فِي دَعْوَتِهِمْ عَنْ
التَّلَبُّسِ بِشَيْءٍ مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا وَلَوْ بِاسْمِ الدِّينِ، فَقَدْ
قَالُوا جَمِيعًا كَلِمَةً وَاحِدَةً لَدَفَعَ النَّفْرَةَ عَنْ دَعْوَتِهِمْ، إِلَّا
وَهِيَ قَوْلُهُمْ كَمَا حَكَاهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ: ﴿ وَمَا

أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [الشعراء: ١٠٩]، حكى هذه المقولة ربُّنا ﷺ عن كلِّ نبيٍّ، فقد جاءت في القرآن أكثر من أحد عشر مرَّة عدا المرات التي في معناها، كلُّهم قالها لينفي عن دعوته ما قد يكون سبباً لإساءة الظنِّ به، فلو أنَّهم دعوا إلى الإسلام ودعوا في الوقت نفسه إلى تغيير السُّلطة أو طلب المال لأوشك النَّاسُ أَنْ يَرْفُضُوهُمْ.

وبهذا يتبيَّن لنا سببُ إخفاق الدَّعواتِ الحركيَّةِ اليومَ التي أكثرُ ثرثرتها عن السُّلطةِ وحقوقِ الشُّعوبِ الماديَّةِ؛ فإنَّ النَّاسَ سُرَّعَانَ ما يَتَّهِمُونَ أَصْحَابَهَا بِفَسَادِ النِّيَّةِ، وهو فُرْقَانُ ما بينَ دَعْوَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ ودَعْوَةِ غَيْرِهِمْ، ولذلك فقد جَرَّبَ على الدَّعواتِ البدعيَّةِ أنَّهم كلِّما أَرَادُوا التَّخَلُّصَ مِنْ دَعْوَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ نَشَرُوا فِي النَّاسِ - بل عندَ ذَوِي السُّلطةِ خاصَّةً - أَنْ احْذَرُوهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ الْوُصُولَ إِلَى السُّلطةِ! فتأمَّل.

وقد أُحِبَّتْ تَذَكِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِضَرُورَةِ التَّأْدُّبِ بِخُلُقِ
حُسْنِ الظَّنِّ لَمَّا رَأَيْتُ أَنَّ أَكْثَرَ الْخَلْقِ عَنْهُ نَاكِبُونَ، وَعَنْ
سَبِيلِهِ غَافِلُونَ، وَمِنْ أَوْدِيَةِ الشُّكُوكِ وَالتُّهَمِ نَاهِلُونَ،
وَكُلُّنَا ذَاكَ الْمَسِيءُ، لَكِنْ لَعَلَّ فِي التَّذَكِيرِ بِالْحَقِّ تَسْبِيًّا فِي
التَّحْسِينِ الْخُلُقِيِّ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ الْمَسْئُولُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَنَا
وَيُصْلِحَ ذَاتَ بَيْنِنَا؛ إِنَّهُ سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

المدينة في ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ

حُسْنُ الظَّنِّ وَسَيِّئُهُ

مِنَ الْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا دِينُنَا حُسْنُ الظَّنِّ
بِالنَّاسِ، وَهُوَ خَلْقٌ رَفِيعٌ يَدُلُّ عَلَى بَاطِنٍ حَسَنٍ، وَعَلَامَةٌ
الْبَاطِنِ الْحَسَنِ صَفَاءُ الْفِكْرِ لِلْإِخْوَانِ وَسَلَامَةُ الصَّدْرِ لَهُمْ،
فَإِذَا صَاحَبَهُ لَيْنٌ جَانِبٍ وَعَقَّةٌ لِسَانٍ فَقَدْ تَمَّ مِنْ خَلْقِهِ كُلُّ
بُنْيَانٍ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ إِذَا طَابَتْ طَابَتْ خَوَاطِرُهَا كَمَا أَنَّ
الشَّجَرَةَ إِذَا طَابَ أَصْلُهَا طَابَتْ ثِمَارُهَا، وَبِالْمُقَابِلِ فَإِنَّ
الظُّنُونَ تَسَوُّهُ عَلَى قَدَرٍ مَا تَبْنِي عَلَيْهِ الْقُلُوبُ مِنْ سَوْءٍ.

وَالْأَخْلَاقُ الْحَسَنَةُ ثَمَرَةُ الْقُلُوبِ الْحَسَنَةِ، وَأَحْسَنُ مَا
وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ هُوَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ بَاعِثٍ
عَلَى الصَّلَاحِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾
تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ
اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

وقد عَظُمَ الخَطْبُ في أَخلاقِيَّاتِ النَّاسِ، وكانَ مِنْ أَكْبَرِ
أَسْبابِ ذلكَ جَعْلُ الآذانِ رَصْدًا لِلأَنْجاسِ، فَتَدَنَّسَتْ
الصُّدُورُ بِسُوءِ الظَّنِّ، حَتَّى تَدافَعَتِ الظُّنُونُ الحُسْنَ،
وَاسْتَعاضَتْ مِنْها الشُّكُوكُ العَفَنَةَ، فوَقَعَتِ الفُرْقَةُ،
وَشُحِنَتِ القُلُوبُ وَعَظُمَتِ الشُّقَّةُ.

فعلَى مائدةِ سُوءِ الظَّنِّ اجتمعَ اللَّئامُ باللَّئامِ، وبه قُطِعَتِ
الأَرْحامُ، وَتَبادَلَ النَّاسُ التُّهَمَ، وَغَصُّوا غِيبَةً وَنَمِيمَةً حَتَّى
التُّخَمُ! فَكَمْ مِنْ ظَنٍّ سَقِيمٍ، مَنَعَ أُخُوَّةً أَنْ تَسْتَدِيمَ،
وَانْقَلَبَتِ الرَّحْمَةُ وَالْأُخُوَّةُ إِلَى قَسْوَةٍ وَعَدَاوَةٍ، وَقَدْ رَأَيْنَا فِي
ذلكَ أَمْثَلَةً عَجِيبَةً:

فوَاحِدٌ وَجَدَ فِي نَفْسِهِ عَلَى أَخِيهِ؛ لِأَنَّهُ مَرَّ بِهِ فَلَمْ يَسَلِّمْ عَلَيْهِ!
وِثَانٍ لِأَنَّهُ لَمْ يُدْعَ إِلَى وَلِيمَةٍ عُرْسٍ مِنْ قِبَلِ حَمِيمٍ لَهُ أَوْ
تَلْمِيزٍ أَوْ مَمْنُونٍ عَلَيْهِ!

وِثالٌ سَأَلَ أَخاهُ لَه عَارِيَةً فَلَمْ يُعْطِهِ، فَتَغَيَّرَ قَلْبُهُ عَلَيْهِ!

وَرابِعٌ دَعَا أَخاهُ لِفَرَجِهِ فَلَمْ يَحْضُرْ إِلَيْهِ!

وخامسٌ وعدَه أخوه ولم يفِ له!
وسادسٌ طعنَ على زوجته في عرضِها لرسالةِ هاتفٍ
مجهولةٍ.

وسابعٌ كلمَ أخاه بهاتفٍ فلم يُجبْ.
وثامنٌ بُلِّغَ أنَّ فلانًا تكلمَ فيه!
وهكذا... نتائجُ مشؤمةٌ، تفرزُها قلوبٌ مسمومةٌ.
وقد كانَ حقُّ الأولِ أن يَشْفِي صدرَه بقوله: لعلَّ بالِ
أخي مشغولٌ بداهيةٍ حلَّت به، فكانت عينُه في عيني وقلبه
سرحانٌ، يا ليتني أكونُ عنده فأُساعده...
وحقُّ الثاني أن يقولَ: لعلَّ نسيَ أن يدعُوني، فاللهُ يُباركُ له...
وحقُّ الثالثِ أن يقولَ: لعلَّ مُحْتَاجٌ إليها...
وحقُّ الرابعِ أن يقولَ: لعلَّ لم يحضُرْ لضيْفِ نزلٍ به أو
غير ذلك...

وحقُّ الخامس أن يقولَ: ما تخلفَ عن الموعدِ إلا
لشيءٍ غلبه، فأسألُ اللهَ أن لا يُريَه مَكروها...
١٥

وَحَقُّ السَّادِسِ أَنْ يَقُولَ: الْمُعَاكِسُونَ مِنْ أَهْلِ الْفُجُورِ
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ...

وَحَقُّ السَّابِعِ أَنْ يَقُولَ: لَعَلَّهُ نَائِمٌ أَوْ مَشْغُولٌ أَوْ نَسِيَ
هَاتِفَهُ عَلَى الصَّامِتِ...

وَحَقُّ الثَّامِنِ أَنْ يَقُولَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ النَّاقِلُ نَقَلَ مَا لَمْ
يَفْهَمْ، فَيَسْلُمُ مِنْ سَوْءِ الظَّنِّ بِالْمُخْبِرِ وَالْمُخْبَرِ عَنْهُ...
وَانْطِلَاقًا مِنْ سَوْءِ الظَّنِّ قَالَ الْفَقِيرُ: لَمْ يَحْمِلْنِي الْغِنَى
فِي سَيَّارَتِهِ إِلَّا لَكِبَرٍ!

وَانْطِلَاقًا مِنْهُ قَالَ الْغَنِيُّ: مَا سَلَّمَ عَلَيَّ الْفَقِيرُ إِلَّا لِأَعْطِيَهُ!
وَانْطِلَاقًا مِنْهُ قَالَ الْمَأْمُومُ الْمَفْتُونُ: مَا دَعَا الْإِمَامُ عَلَى
مَنْبَرِهِ لِلْحَاكِمِ إِلَّا نِفَاقًا!

وَانْطِلَاقًا مِنْهُ قَالَتِ الرَّعِيَّةُ فِي رَأْسِهَا: مَا خَدَمْنَا إِلَّا
حِفَاطًا عَلَى كُرْسِيِّهِ!

وَانْطِلَاقًا مِنْهُ قَالَ الصَّاحِبُ فِي صَاحِبِهِ: مَا مَاشَى
خَصْمِي إِلَّا لِيُشْمِتَ بِي!

وانطلاقاً منه قال طالبُ العلم في ندّه: ما خالفني إلا ليرزأ!
وهكذا في سلسلة من التخرّصات لا يُحصيها إلا المطلّع
على أعمال العباد وقلوبهم، وأكثرُ الناس في تفسير ما لا
يَعلمون حقيقته عن حُسن الظنّ ناكبون، وفي الصبر عليه
محرومون.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾
وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[الفرقان: ٢٠].﴾

التثبت في الأخبار

الأخبارُ المزعجةُ هي أشدُّ الوارداتِ على القلوبِ؛ إذ أغلبُ الخلقِ لا يتورَّعون عن قبولِ الأخبارِ التي تبلغُهم عن غيرهم، وعلى غرارها يتسرَّعون في إصدارِ حكمهم على أصحابها، كما يتسرَّعون في نشرها، وقلةٌ قليلةٌ منهم من يعملُ بآيةِ التبيينِ إذا وفدت عليه الأخبارُ، لا سيما من كانَ بينه وبين المُخبر عنه شنانٌ وشجار؛ فإنَّ النفسَ الشَّحيحةَ بحظِّها لا يدعُها حرصُها على الانتصارِ أن تتأَنَّى وتُخشى اللهَ في خصمِها.

قال الله ﷻ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وقد لا تكونُ الثقةُ بالمُخبرِ أولى من الثقةِ بالمُخبر عنه، وقد يكونُ المرءُ صادقًا لكنَّه في هذه المرَّةِ سهى أو طغى، أي طغى فهما، أو طغى عصيانًا كالذي يكونُ بين الأقرانِ مثلاً.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَنْقُلُونَ فِي هَذَا مَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ، الْأَمْرُ
الَّذِي نَعَاهُ اللَّهُ عَلَى قَوْمٍ فَقَالَ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
يَأْفَوَاهُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥]، مع أَنَّ هَذِهِ الظُّنُونُ
الْمَرْجُوحَةُ لَا تُفِيدُ فِي مُطَالَعَةِ الْحَقَائِقِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا
يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦]؛
وَذَلِكَ لِأَنَّ الظَّنَّ الْخَالِيَّ عَنِ الْقَرَائِنِ لَا يُعَدُّ عِلْمًا، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]،
وَلِذَلِكَ كَثِيرًا مَا يُقَابِلُ اللَّهُ الظَّنَّ بِالْعِلْمِ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْ هَلْ
عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ
إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وَقَالَ: ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨].

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِاجْتِنَابِ كَثِيرٍ مِنَ الظَّنِّ لِنَأْمَنِ الْوُقُوعِ فِي
بَعْضِهِ الَّذِي يَكُونُ إِثْمًا، فَقَالَ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا
كَثِيرًا مِمَّنَ الظَّنِّ إِنْ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وَهَذَا غَايَةُ
فِي الْإِحْتِيَاظِ لِأَعْرَاضِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ

بالإعراض عن الكثير كي لا يَقَعُوا فِي بَعْضِهِ فَقَطْ.

قَالَ أَبُو السُّعُود فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي كِتَابِهِ «إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ إِلَى مَزَايَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ»: «وإِبْهَامُ الْكَثِيرِ لِإِجَابِ الْإِحْتِيَاظِ وَالتَّأَمُّلِ فِي كُلِّ ظَنٍّْ ظَنٌّ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ أَيْ قَبِيلٍ».

وَأَكْثَرُ الْأَسْبَابِ الدَّافِعَةِ لِتَرْكِ الْعَدْلِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ وَالْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِالظَّنِّ الْمَجْرَدِ هُوَ اسْتِقْبَالُ الْأَخْبَارِ الْوَافِدَةِ عَنْهُمْ بِسُوءِ ظَنٍّْ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَظُنُّ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ إِلَّا خَيْرًا فَقَالَ: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، قَالَ الْمَفْسَّرُونَ: أَيُّ ظَنٍّْ الْمُؤْمِنُونَ بِبَعْضِهِمُ الْبَعْضَ خَيْرًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أَيُّ لِيَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

وَمَا قَتَلَ الْخَلِيفَةُ الثَّالِثُ ذَا النُّورَيْنِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانٍ رضي الله عنه إِلَّا اتِّبَاعُ خَبَرٍ كُذِبَ عَلَيْهِ فَلَمْ يُتَحَقَّقْ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّ الثُّوَارَ

لَمَّا قَصَدُوهُ وَاعْتَرَضُوا عَلَيْهِ فِي أَشْيَاءَ تَسَرَّعُوا فِي فَهْمِهَا
عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهَا وَفِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ بِهَا هُوَ بَرَاءٌ مِنْهُ، جَلَّى لَهُمْ
أَمْرُهَا فَرَجَعُوا.

فَجَاءَ شَقِيٌّ وَزَوَّارِ رِسَالَةٍ بِاسْمِ عُثْمَانَ مَضْمُونُهَا أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
يَأْمُرُ وَالِيَهُ عَلَى بَلَدَةِ أُولَئِكَ الثُّوَارِ أَنْ يَقْتُلَهُمْ عِنْدَ رُجُوعِهِمْ،
فَانْطَلَى هَذَا الْخَبْرُ الْكَاذِبُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ رَكِبُوا هَوَاهُمْ،
وَبَسْبَبِهِ قَتَلُوهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رَوَى الْبَزَّارُ فِي «الْبَحْرِ الزَّخَّارِ» (٣٨٩) وَابْنُ حَبَّانَ
(٦٩١٩) وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الإِمَامَةِ وَالرَّدِّ عَلَى الرَّافِضَةِ»
(١٦٤) وَابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَارِيخِ الرُّسُلِ وَالْمُلُوكِ» (٣/ ٣٩٠)،
(٤١٤) وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقَ» (٣٩/ ٢٥٧) عَنْ
أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى أَبِي أَسِيدِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: «سَمِعَ عُثْمَانُ أَنَّ
وَفْدَ أَهْلِ مِصْرَ قَدْ أَقْبَلُوا فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَلَمَّا سَمِعُوا بِهِ أَقْبَلُوا
نَحْوَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي هُوَ فِيهِ، فَقَالُوا لَهُ: ادْعُ الْمُصْحَفَ،
فَدَعَا بِالْمُصْحَفِ، فَقَالَ لَهُ: افْتَحِ السَّابِعَةَ، قَالَ: وَكَانُوا

يُسْمُونَ سورة يونس السَّابِعَةَ، فقرأها حتى أتى على هذه
الآية: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ
مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَإِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾
[يونس: ٥٩]، قالوا له: قِفْ! أَرَأَيْتَ مَا حَمَيْتَ مِنَ الْحِمَى^(١)،
اللَّهُ أَذِنَ لَكَ بِهِ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرِي؟! فقال: أَمْضِهِ، نَزَلَتْ فِي
كَذَا وَكَذَا، وَأَمَّا الْحِمَى لِإِبِلِ الصَّدَقَةِ فَلَمَّا وَلَدَتْ زَادَتْ إِبِلُ
الصَّدَقَةِ فَزِدْتُ فِي الْحِمَى لَمَّا زَادَ فِي إِبِلِ الصَّدَقَةِ، أَمْضِهِ،
قالوا: فَجَعَلُوا يَأْخُذُونَهُ بِآيَةِ آيَةٍ، فيَقُولُ: أَمْضِهِ نَزَلَتْ فِي
كَذَا وَكَذَا، فقال لهم: مَا تُرِيدُونَ؟ قالوا: مِثَاقُكَ، قَالَ:
فَكُتِبُوا عَلَيْهِ شَرْطًا، فَأَخَذَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَشُقُّوا عَصًا وَلَا
يُفَارِقُوا جَمَاعَةً مَا قَامَ لَهُمْ بِشَرْطِهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: مَا تُرِيدُونَ؟
قالوا: نُرِيدُ أَنْ لَا يَأْخُذَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ عَطَاءً، قَالَ: لَا! إِنَّهَا هَذَا
الْمَالُ لِمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهِ وَلَهُوْلَاءِ الشُّيُوخِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ،
قَالَ: فَرَضُوا وَأَقْبَلُوا مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ رَاضِينَ.

(١) حِمَاةُ الْحِمَى هِيَ أَنْ يَحْمِيَ الرَّجُلُ مَكَانَ عُشْبٍ لِلرَّعْيِ وَيَمْنَعُ غَيْرَهُ مِنْهُ.

قَالَ: فَقَامَ فَخَطَبَ، فَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ لَهُ زَرْعٌ فَلْيَحَقِّقْ
بِزَرْعِهِ، وَمَنْ كَانَ لَهُ ضَرْعٌ فَلْيَحْتَلِبْهُ، أَلَا إِنَّهُ لَا مَالَ لَكُمْ
عِنْدَنَا؛ إِنَّمَا هَذَا الْمَالُ لِمَنْ قَاتَلَ عَلَيْهِ، وَهَؤُلَاءِ الشُّيُوخُ مِنْ
أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ: فَغَضِبَ النَّاسُ وَقَالُوا: هَذَا مَكْرُ
بَنِي أُمَيَّةَ!

قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ الْمَصْرِيُّونَ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي الطَّرِيقِ إِذَا هُمْ
بِرَاكِبٍ يَتَعَرَّضُ لَهُمْ ثُمَّ يُفَارِقُهُمْ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ يُفَارِقُهُمْ
وَيَسْبُهُمْ، قَالُوا: مَا لَكَ؟ إِنَّ لَكَ الْأَمَانَ، مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ: أَنَا
رَسُولُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَامِلِهِ بِمِصْرَ، قَالَ: فَفَتَّشُوهُ فَإِذَا هُمْ
بَالْكِتَابِ عَلَى لِسَانِ عُثْمَانَ عَلَيْهِ خَاتَمُهُ إِلَى عَامِلِهِ بِمِصْرَ: أَنْ
يَصْلِبَهُمْ أَوْ يَقْتُلَهُمْ أَوْ يَقْطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ.

فَأَقْبَلُوا حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ، فَأَتَوْا عَلِيًّا فَقَالُوا: أَلَمْ تَرَ إِلَى
عَدُوِّ اللَّهِ كَتَبَ فِينَا بَكْذَا وَكَذَا؟! وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْلَلَ دَمَهُ!! قُمْ
مَعَنَا إِلَيْهِ، قَالَ: وَاللَّهِ! لَا أَقُومُ مَعَكُمْ، قَالُوا: فَلِمَ كَتَبْتَ
إِلَيْنَا؟ قَالَ: وَاللَّهِ! مَا كَتَبْتُ إِلَيْكُمْ كِتَابًا قَطُّ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ

إِلَى بَعْضٍ، ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: هَذَا تُقَاتِلُونَ؟ أَوْ
هَذَا تَغْضِبُونَ؟ فَانْطَلَقَ عَلِيٌّ فَخَرَجَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى قَرْيَةٍ،
وَانْطَلَقُوا حَتَّى دَخَلُوا عَلَى عُثْمَانَ، فَقَالُوا: كَتَبْتَ بكَذَا
وَكَذَا؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هُمَا اثْنَانِ: أَنْ تُقِيمُوا عَلِيَّ رَجُلَيْنِ مِنَ
الْمُسْلِمِينَ^(١)، أَوْ يَمِينِي بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَا كَتَبْتُ
وَلَا أَمَلَيْتُ وَلَا عَلِمْتُ، وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الْكِتَابَ يُكْتُبُ
عَلَى لِسَانِ الرَّجُلِ، وَقَدْ يُنْقَشُ الْخَاتَمُ عَلَى الْخَاتَمِ، فَقَالُوا:
وَاللَّهِ! أَحَلَّ اللَّهُ دَمَكَ!! وَنَقَضُوا الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ فَحَاصَرُوهُ.

فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَمَا
أَسْمَعُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ رَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ إِلَّا أَنْ يَرُدَّ رَجُلٌ فِي
نَفْسِهِ، فَقَالَ: أَنْشِدُكُمْ اللَّهَ: هَلْ عَلِمْتُمْ أَنِّي اشْتَرَيْتُ رُومَةَ
مِنْ مَالِي، فَجَعَلْتُ رِشَائِي فِيهَا كَرِشَاءِ رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟
قِيلَ: نَعَمْ! قَالَ: فَعَلَامَ تَمْنَعُونِي أَنْ أَشْرَبَ مِنْهَا حَتَّى أَفْطَرَ
عَلَى مَاءِ الْبَحْرِ؟ أَنْشِدُكُمْ اللَّهَ: هَلْ عَلِمْتُمْ أَنِّي اشْتَرَيْتُ كَذَا

(١) أَيِ يَشْهَدَانِ عَلِيٍّ بِمَا زَعَمْتُمْ.

وَكَذَا مِنَ الْأَرْضِ فَزِدْتُهُ فِي الْمَسْجِدِ؟ قِيلَ: نَعَمْ! قَالَ: فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ مُنِعَ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ قَبْلِي؟ أَنْشَدُكُمْ اللَّهَ: هَلْ سَمِعْتُمْ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ كَذَا وَكَذَا؟ أَشْيَاءٌ فِي شَأْنِهِ عَدَدَهَا، قَالَ: وَرَأَيْتُهُ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى فَوَعَظَهُمْ وَذَكَرَهُمْ فَلَمْ تَأْخُذْ مِنْهُمْ الْمَوْعِظَةُ....».

ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلُّهُ قَتَلُوهُ بَعْدَهَا، فَاَنْظُرْ مَاذَا فَعَلَتْهُ الْأَخْبَارُ بِالْمُسْلِمِينَ حِينَ خَالَفُوا أَمْرَ الْكِتَابِ فِي التَّبَيُّنِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ مِنْ هَذَا النَّمَطِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِمْ آيَةُ التَّبَيُّنِ وَلَكِنْ عِنْدَ التَّطْبِيقِ يَعْمَوْنَ عَنْهَا، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَوَرَّعُ عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْكَذِبِ، وَلَكِنَّهُ دَائِمُ الْوُقُوعِ فِي أَكْذَبِ الْكَذِبِ، أَلَا وَهُوَ الْاسْتِسْلَامُ لِلظُّنُونِ الْمُجَرَّدَةِ عَنِ الْقَرَائِنِ الصَّحِيحَةِ، فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (٤٨٤٩) وَمُسْلِمٍ (٦٧٠١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ وُقُوعَ الْكَذِبِ فِي الظَّنِّ أَكْثَرُ مِنْ وُقُوعِهِ فِي

الكلام، وقد يجتمعان فتزدادُ الشناعةُ كما هو الشأنُ فيما نحنُ بصددِهِ، فيقعُ صاحبهُ في قَمَّةِ الكذبِ، كما روى مسلم (٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كفى بالمرءِ كذباً أن يُحدثَ بكلِّ ما سمِعَ»، ولهذا لعنَ الله المتكلمَ بالظنِّ فقال: ﴿قُلِ الْخِرَاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]، وفي «تفسير ابن كثير»: قال قتادة: «الخرَّاصون: أهلُ الغرَّةِ والظُّنونِ»، وقال مجاهد: «الكذَّابون».

ولا تنافي بين التفسيرين، بل بينهما تلازمٌ قوياً؛ وهو أن الكذابَ إنما يقعُ في الكذبِ بالخرص وهو الظنُّ الذي لا دليلَ عليه، كما بيَّنه الحديثانِ النبويَّانِ الأخيرانِ.

ولا يستعظمَنَّ أحدُكم أن سمَّاه النبي ﷺ أكذبَ الحديث؛ فإنَّ الرَّجُلَ لَا يَفْتَرُ يَفْتَرِي الكذبَ بتَّبَعِ الظُّنونِ، بل الظَّنُّ السَّيِّئُ يُوقِعُ صاحبهُ في البُهتانِ؛ لأنَّه يرمي المظنونَ به بغيرِ ما اكتسَبَ بمجردِ الظَّنِّ، واللهُ يقولُ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا

فَقَدْ أَحْتَمَلُوا بُهْتَنَا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿[الأحزاب: ٥٨].

روى مسلم (٦٦٨٥) عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْغَيْبَةُ؟» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبَتْهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتْهُ».

ولعلَّه مِنْ أَجْلِ أَنَّ الْإِنْسَانَ الطَّاعِنَ فِي عَرَضِ أَخِيهِ بغيرِ حَقٍّ لَا بَدَّ لَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي إِحْدَى هَاتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ: الْغَيْبَةِ أَوْ الْبُهْتَانِ الْمُتَوَرِّطِ فِيهِ سَيِّئُ الظَّنِّ؛ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ مِنْ كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبِئُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ؕ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ

تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿[الحجرات: ١٢].

وَتَأْمَلُ تَخْلُلُ التَّجَسُّسِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ؛ لِأَنَّ التَّجَسُّسَ غَايَةُ مَطَالِبِ الظَّانِّ الْعِيَابِ، وَأَوَّلُ بَوَابِ

المُغْتَابِ؛ لَأَنَّ صَاحِبَهُ يَبْتَغِي الظُّهُورَ عَلَى الْعُيُوبِ، وَلَوْ
مَسَّهُ فِي ذَلِكَ مَا مَسَّهُ مِنْ لُغُوبٍ.

قَالَ الْقَاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مَحَاسِنِ التَّأْوِيلِ» (٩/ ٣٦٩٠): «وَلَمَّا
كَانَ مِنْ ثَمَرَاتِ سُوءِ الظَّنِّ التَّجَسُّسُ، فَإِنَّ الْقَلْبَ لَا يَقْنَعُ
بِالظَّنِّ وَيَطْلُبُ التَّحْقِيقَ فَيَشْتَغِلُ بِالتَّجَسُّسِ، ذَكَرَ سُبْحَانَهُ
النَّهْيَ عَنْهُ إِثْرَ سُوءِ الظَّنِّ لِذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾».

قُلْتُ: فَانْظُرْ كَيْفَ تَبِعَ سُوءَ الظَّنِّ كَبِيرَتَانِ هُمَا
التَّجَسُّسُ وَالْغِيبَةُ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا سَاءَ ظَنُّهُ تَجَسَّسَ لِيَتَحَقَّقَ،
وَإِذَا تَحَقَّقَ نَشِطَ فِي الْغِيبَةِ، وَهَذَا هُوَ تَرْتِيبُ جُمْلِ الْآيَةِ.

قَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «تَسِيرِ الْكَرِيمِ
الْمَنَانِ» عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: «إِنَّ بَقَاءَ ظَنِّ السُّوءِ بِالْقَلْبِ لَا
يَقْتَصِرُ صَاحِبُهُ عَلَى مَجَرَّدِ ذَلِكَ، بَلْ لَا يَزَالُ بِهِ حَتَّى يَقُولَ
مَا لَا يَنْبَغِي وَيَفْعَلُ مَا لَا يَنْبَغِي»، وَفَعَلَ مَا لَا يَنْبَغِي هُنَا هُوَ
التَّجَسُّسُ، وَقَوْلُ مَا لَا يَنْبَغِي هُنَا هُوَ الْغِيبَةُ، وَهَذَا يُبَيِّنُ سَرَّ
تَشْدِيدِ الشَّرِيعَةِ فِي خُلُقِ سُوءِ الظَّنِّ، وَاللَّهُ الْعَاصِمُ.

ولخُطُورةِ الأمرِ فإنَّ الشَّيْطَانَ يَرْتَكِزُ عَلَى قَذْفِ الظُّنُونِ
السَّيِّئَةِ فِي الْقُلُوبِ ارْتِكَازًا قَوِيًّا، وَمِنْ أَعْجَبِ مَا رَأَيْتُ فِي
هَذَا قِصَّةِ زِيَارَةِ صَفِيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَزَوْجِهَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ
فِي مُعْتَكِفِهِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ (٢٠٣٥) وَمُسْلِمٌ
(٥٧٣٠) عَنْ صَفِيَّةَ ابْنَةِ حُيٍّ قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
مُعْتَكِفًا، فَاتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلًا فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ
مَعِيَ لِيَقْلِبَنِي - وَكَانَ مَسْكُنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ - فَمَرَّ
رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا، فَقَالَ
النَّبِيُّ ﷺ: عَلَى رِسْلِكُمَا؛ إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيٍّ! فَقَالَا:
سُبْحَانَ اللَّهِ! يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ
الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِّ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا
سُوءًا أَوْ قَالَ: شَيْئًا».

وَوَجْهُ الْعَجَبِ فِيهَا أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَظُنَّ مُسْلِمٌ
بِالرَّسُولِ ﷺ سُوءًا، فَكَيْفَ بِصَحَابِيِّنَ؟! كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَةٍ
عِنْدَ مُسْلِمٍ (٥٧٢٩) عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ «كَانَ مَعَ

إِحْدَى نَسَائِهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَدَعَاهُ، فَجَاءَ فَقَالَ: يَا فُلَانُ!
هَذِهِ زَوْجَتِي فُلَانَةُ! فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ بِهِ
فَلَمْ أَكُنْ أَظُنُّ بِكَ!» الْحَدِيثُ، مَعَ ذَلِكَ فَقَدْ خَافَ ﷺ
عَلَيْهِمَا مِنْ ذَلِكَ.

وَفِيهِ دَلَالَةٌ صَرِيحَةٌ عَلَى أَنَّ الشَّيْطَانَ هُوَ مُنْشِطُ الظُّنُونِ
السَّيِّئَةِ، فَأَيُّ أَمَانٍ يَأْخُذُهُ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فِي هَذَا
الْبَابِ؟! قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ
يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» (٤ / ٢٨٠): «وَالْمُحْصَلُ
مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْسِبْهُمَا إِلَى أَنَّهُمَا يَظُنَّانِ بِهِ
سَوْءًا لِمَا تَقَرَّرَ عِنْدَهُ مِنْ صِدْقِ إِيمَانِهِمَا، وَلَكِنْ خَشِيَ
عَلَيْهِمَا أَنْ يُوسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ
مَعْصُومَيْنِ، فَقَدْ يُفْضِي بِهِمَا ذَلِكَ إِلَى الْهَلَاكِ، فَبَادَرَ إِلَى
إِعْلَامِهِمَا حَسْمًا لِلْمَادَّةِ، وَتَعْلِيمًا لِمَنْ بَعْدَهُمَا إِذَا وَقَعَ لَهُ مِثْلُ
ذَلِكَ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ

أَنَّ الشَّافِعِيَّ كَانَ فِي مَجْلِسِ ابْنِ عُيَيْنَةَ فَسَأَلَهُ عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ؟ فَقَالَ الشَّافِعِيُّ: إِنَّمَا قَالَ لَهَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ خَافَ عَلَيْهِمَا الْكُفْرَ إِنْ ظَنَّا بِهِ التُّهْمَةَ، فَبَادَرَ إِلَى إِعْلَامِهَا نَصِيحَةً لَهَا قَبْلَ أَنْ يَقْذِفَ الشَّيْطَانُ فِي نَفْسِهَا شَيْئًا يَهْلِكُ بِهِ...

وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: ...بَيَانُ شَفَقَتِهِ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْإِثْمَ، وَفِيهِ التَّحَرُّزُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِسُوءِ الظَّنِّ وَالِاحْتِفَازُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَالِاعْتِدَارُ، قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: وَهَذَا مُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ الْعُلَمَاءِ وَمَنْ يُقْتَدَى بِهِ فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلًا يُوْجِبُ سُوءَ الظَّنِّ بِهِمْ وَإِنْ كَانَ لَهُمْ فِيهِ مَخْلَصٌ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ سَبَبٌ إِلَى إِبْطَالِ الْإِنْتِفَاعِ بِعِلْمِهِمْ».

وَيَجِبُ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ فِي غَيْرِهِ بِمُجَرَّدِ الظَّنِّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ مُتَعَرِّضٌ لِعَرَضٍ مَصُونٍ؛ فَقَدْ «نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ بَيْتِ مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ، وَلِلْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ؛ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ

منك واحدةً وحرَّم من المؤمنِ ثلاثًا: دمه وماله وأن يُظنَّ به ظنُّ السُّوء» رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٧٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «السَّلسلة الصَّحيحة» (٣٤٢٠)، فقد دلَّ هذا على أنَّ تعظيم حُرمة المؤمنِ تكونُ بإحسانِ الظنِّ به كما فسَّره قتادةٌ رحمه الله.

روى أبو الشَّيخ في «التوبيخ والتنبيه» (١٤٣) بإسنادٍ صحيحٍ عن قتادة قال: «والله! لقد عظمَ اللهُ حُرمةَ المؤمنِ حتَّى يقال: أن تظنَّ بأخيك إلا خيرًا، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]».

وقال ابن دقيق العيد في «الاقتراح» (٣٤): «أعراضُ المسلمين حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ، وقفَ على شَفِيرِهَا طَائِفَتَانِ مِنَ النَّاسِ: المحدثون والحكَّام»، ومعنى الحكَّام القضاةُ ومن في معنائهم.

وقد خصَّ هاتين الطَّائفتين بالذكرِ لأنَّهما أكثرُ النَّاسِ تعرُّضًا لأعراض النَّاسِ للحاجةِ أو الضَّرورةِ، فالمحدثون

يَتَكَلَّمُونَ فِي رُؤَاةِ الْحَدِيثِ جَرَحًا وَتَعْدِيلًا صِيَانَةً لِحَدِيثِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالْقُضَاةُ يَحْكُمُونَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ وَأَعْرَاضِهِمْ
وَدِمَائِهِمْ، وَلِذَلِكَ كَانُوا أَحْوَجَ النَّاسِ إِلَى التَّثَبُّتِ.

وَفِي «السِّيَرِ» لِلذَّهَبِيِّ (١٥٤ / ١٠) أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رحمته
قَالَ: «مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَوْزَنَ بِقَوْمٍ مِنْ غَيْرِ مُحَابَاةٍ وَأَشَدَّ تَثَبُّتًا
فِي أُمُورِ الرِّجَالِ مِنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ!».

وَمِنْ التَّطَبُّقَاتِ النَّبَوِيَّةِ لِحُلُقِ حُسْنِ الظَّنِّ بِالْغَيْرِ مَا
رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٢٥) وَمُسْلِمٌ (٤٧٤٥) وَالنَّسَائِيُّ
(٥٣٨٢) - وَاللَّفْظُ لَهُ - عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: «أَتَانِي نَاسٌ
مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ فَقَالُوا: اذْهَبْ مَعَنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَإِنَّ
لَنَا حَاجَةً، فَذَهَبْتُ مَعَهُمْ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اسْتَعِنْ بِنَا
فِي عَمَلِكَ، قَالَ أَبُو مُوسَى: فَاعْتَذَرْتُ مِمَّا قَالُوا وَأَخْبَرْتُ
أَنِّي لَا أَدْرِي مَا حَاجَتُهُمْ، فَصَدَّقَنِي وَعَذَرَنِي، فَقَالَ: إِنَّا لَا
نَسْتَعِينُ فِي عَمَلِنَا بِمَنْ سَأَلْنَا».

فَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّ قَوْمَ أَبِي مُوسَى رحمته طَمَعُوا أَنْ

يَوْمَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ عَلَى بَعْضِ الْمَسْئَلِيَّاتِ وَتَشْفَعُوا بِأَبِي
 مُوسَى فِي الدُّخُولِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يُخْبِرُوهُ
 بِحَاجَتِهِمْ، فَلَمَّا أَفْصَحُوا عِنْدَهُ بِمُرَادِهِمْ جَعَلَ أَبُو مُوسَى
 يَعْتَذِرُ لِعِلْمِهِ بِأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ
 الْإِمَارَةَ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَخَاطَرَةِ بَعْدَ الْوَفَاءِ بِحَقِّهَا، وَقَدْ
 قَبِلَ الرَّسُولُ ﷺ عُذْرَهُ وَلَمْ يَتَّهِمْهُ بِأَنَّهُ أَخَذَتْهُ حِمِيَّةُ قَوْمِهِ فِي
 الشَّفَاعَةِ لَهُمْ فِي شَيْءٍ لَا يُحِبُّهُ ﷺ، وَهَكَذَا فَلْيَكُنْ أَهْلُ الْخُلُقِ
 الْحَسَنِ الْمُقْتَدُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

وَمِنْ تَطْبِيقَاتِ السَّلَفِ لِهَذَا الْخُلُقِ النَّبَوِيِّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ
 الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ نَاسًا مِنَ الْكُوفَةِ طَعَنُوا عَلَى
 وَلَايَةِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَادَرَ إِلَى التَّحَقُّقِ لِأَنَّهُ
 الْمَسْئُولُ الْأَوَّلُ عَمَّا يَقَعُ فِي دَوْلَتِهِ مَعَ حُسْنِ ظَنِّهِ بِسَعْدٍ، وَلَمَّا
 بَيَّنَّ لَهُ سَعْدٌ قَالَ عُمَرُ: «ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ!»
 رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٧٥٥) وَمُسْلِمٌ (٩٤٨).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْفَتْحِ» (٢/٢٣٨): «قَوْلُهُ: (يَا أَبَا إِسْحَاقَ): كُنِّي بِذَلِكَ بِأَكْبَرِ أَوْلَادِهِ، وَهَذَا تَعْظِيمٌ مِنْ عُمَرَ لَهُ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ تَقْدَحْ فِيهِ الشُّكُوى عِنْدَهُ»، وَقَالَ (٢/٢٤١): «فِيهِ الْإِعْتِذَارُ لِمَنْ سَمِعَ فِي حَقِّهِ كَلَامٌ يَسُوؤُهُ».

وَلَا بَأْسَ أَنْ أَسُوقَ الْقِصَّةَ بِتَمَامِهَا مَعَ شَيْءٍ مِمَّا يَخْصُنَا مِنْ فَوَائِدِهَا، رَوَى الْبُخَارِيُّ (٧٥٥) وَمُسْلِمٌ (٩٤٨) عَنْ جَابِرِ ابْنِ سَمُرَةَ قَالَ: «شَكَأَ أَهْلُ الْكُوفَةِ سَعْدًا إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكُّوا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ! إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ تُصَلِّي؟ قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا - وَاللَّهِ! - فَإِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أَصَلِّي صَلَاةَ الْعِشَاءِ فَأَرْكُضُ فِي الْأَوَّلِينَ وَأُخْفُ فِي الْآخِرِينَ، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ! فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رَجُلَيْنِ إِلَى الْكُوفَةِ فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا

لِبْنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يَقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى
أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا، فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ
بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدُلُ فِي الْقَضِيَّةِ، قَالَ
سَعْدٌ: أَمَّا - والله! - لَأَدْعُونَ بِثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ
هَذَا كَاذِبًا قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَأَطِلْ عُمرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ،
وَعَرِّضْهُ بِالْفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ
مَفْتُونٌ أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ! قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ: فَأَنَا
رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الْكِبَرِ، وَإِنَّهُ
لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ».

هَذَا هُوَ شَأْنُ النَّاسِ فِي إِذَاعَةِ الشَّرِّ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، عَلَى
الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ فِيهِ هُوَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رحمته الله
أَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشِّرِينَ بِالْجَنَّةِ، بَلْ وَقَعَ فِي رِوَايَةٍ عِنْدَ
الْبُخَارِيِّ (٧٧٠) وَمُسْلِمٍ (٩٥١) أَنَّ عُمَرَ قَالَ لَهُ: «لَقَدْ
شَكَّوْكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى الصَّلَاةَ!»

وَأَمَّا عَنْ عَزْلِ عُمَرَ إِيَّاهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ عَدَمِ ثُبُوتِ
 التُّهْمَةِ فِي حَقِّهِ، فَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ رحمته الله فِي «شرح صحيح
 مسلم» (١٧٦/٤): «فِيهِ أَنَّ الْإِمَامَ إِذَا شَكَّى إِلَيْهِ نَائِبُهُ بَعَثَ
 إِلَيْهِ وَاسْتَفْسَرَهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ إِذَا خَافَ مَفْسَدَةً بِاسْتِمْرَارِهِ
 فِي وِلَايَتِهِ وَوُقُوعَ فِتْنَةٍ عَزْلَهُ، فَلِهَذَا عَزَلَهُ عُمَرُ رحمته الله مَعَ أَنَّهُ لَمْ
 يَكُنْ فِيهِ خَلْلٌ وَلَمْ يَثْبُتْ مَا يَقْدَحُ فِي وِلَايَتِهِ وَأَهْلِيَّتِهِ، وَقَدْ ثَبَتَ
 فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ فِي حَدِيثِ مَقْتَلِ عُمَرَ وَالشُّورَى أَنَّ
 عُمَرَ رحمته الله قَالَ: إِنْ أَصَابَتِ الْإِمَارَةُ سَعْدًا فَذَاكَ وَإِلَّا
 فَلَيْسَتَيْنِ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِرْتُ؛ فَإِنِّي لَمْ أَعَزِلْهُ مِنْ عَجْزٍ وَلَا خِيَانَةٍ».

وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي «الأدب المفرد» (١٢٨٩) -
 وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي تَحْقِيقِهِ لَهُ (٩٧٩) - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 مَسْعُودٍ رحمته الله أَنَّهُ قَالَ: «مَا يَزَالُ الْمَسْرُوقُ مِنْهُ يَتَظَنَّى حَتَّى
 يَصِيرَ أَعْظَمَ مِنَ السَّارِقِ»، وَمَعْنَاهُ أَنَّ الْمَسْرُوقَ يَجْلِسُ يُفَكِّرُ
 فَيَمَنُّ سَرَقَهُ وَيَشْكُ حَتَّى رُبَّمَا اتَّهَمَ الْأَبْرِيَاءَ فَيَعْظُمُ بِذَلِكَ
 ذَنْبُهُ حَتَّى يَكُونَ أَعْظَمَ مِنْ ذَنْبِ السَّارِقِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

أسباب الوقوع في سوء الظن

أَجَلُ هَاهُنَا أَسْبَابُ وَقُوعِ النَّاسِ فِي سُوءِ الظَّنِّ فِي ذِكْرِ بَعْضِهَا:

١ - غالبًا ما تُسَاءُ الظُّنُونُ بَيْنَ النَّاسِ بِسَبَبِ خُصُومَةٍ بَيْنَهُمْ، فَلِذَلِكَ مَا يُذَاعُ خَبْرٌ سَيِّئٌ عَنْ خُصُومِهِمْ إِلَّا تَلَقَّوْهُ بِأَذَانٍ وَاعِيَةٍ، وَأَخْلَاقٍ وَاهِيَةٍ؛ إِذْ لَوْ كَانُوا يَصْدُرُونَ عَنْ خُلُقٍ لَمَّا اسْتَسَلَمُوا لِلظَّنِّ وَالْهَوَى؛ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا إِلَى الظَّنِّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وَكَلَامُنَا هُنَا عَنْ ظَنٍّ اسْتَوْلَدَهُ تَنَازُعٌ مُحْتَدِمٌ، خَالَطَهُ حَقْدٌ مُسْتَحْكِمٌ، انْتَهَى إِلَى شَهْوَةٍ غَضَبِيَّةٍ، تُغْلِقُ عِنْدَهَا الْعُقُولَ الْبَشَرِيَّةَ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ فِي أَحَدِ جَانِبِي الْخِلَافِ حَمِيمٌ أَوْ قَرِيبٌ، فَإِنَّ أَكْثَرَ الْخُلُقِ يَفْقِدُونَ تَوَازُنَهُمْ عِنْدَهُ حَتَّى يَكُونُوا مَعَ حَمِيمِهِمْ وَقَرِيبِهِمْ بِلَا حِجَّةٍ، بَلْ تَجَاوَبًا مَعَ الْحَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّتِي نَعَاهَا اللَّهُ عَلَى الْكُفَّارِ فَقَالَ: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

فَالْمُؤْمِنُ رَزِينٌ مُتَشَبِّتٌ يَتَحَرَّى الصَّدَقَ وَيَتَحَكَّمُ فِي نَفْسِهِ
وَيُرَاقِبُ كَلِمَاتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا
قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وَقَالَ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].
وَالتَّبَيُّنُ فِي ذَلِكَ هُوَ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْعَدْلِ وَلَوْ مَعَ الْعَدُوِّ
الْبَيِّنِ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا
تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهٖ ﷺ وَصَحَابَتَهُ الْكَرَامَ أَنْ يَكُونُوا
عُدُوًّا لَا حَتَّىٰ مَعَ مَنْ صَدَّهْمَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَقَالَ: ﴿وَلَا
يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]، فَأَكْثَرُ مَقُولَاتِ النَّاسِ فِي مُحَالَفِهِمْ
لَا يَعْلَمُونَ صِدْقَهَا مِنْ كَذِبِهَا، مَعَ ذَلِكَ فَيُسَارِعُونَ إِلَى
تَصْدِيقِهَا بَلْ وَنَشْرِهَا إِذَا كَانَتْ لَهُمْ، وَمَا حَمَلَ الْكَثِيرَ مِنْهُمْ
عَلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا الْحَمِيَّةُ الَّتِي تَفَرُّزُهَا الْخُصُومَاتُ.

٢- تَسَاهَلُ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِسَاءَةِ الظَّنِّ بِغَيْرِهِمْ قَدْ يَكُونُ نَاتِجًا عَنْ سُوءِ فِعَالِهِمْ؛ فَهُمْ كَمَا قِيلَ: وَدَّتِ الزَّانِيَةُ لَوْ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعًا زَنَوْا، وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ: مَا فِيكَ ظَهَرَ عَلَى فَيْكِ، لَا سِيَّمَا إِنْ أَرَادَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَنْ يُكْثِرَ سَوَادَهُ بِتَكْثِيرِ الْمُصَابِينَ بِمِثْلِ سَيِّئَاتِهِ لَتَخَفَّ وَطَأَتْهَا عَلَى قَلْبِهِ حِينَ يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، مِنْ بَابِ قَوْلِهِمْ: الْمَصِيبَةُ إِذَا عَمَّتْ خَفَّتْ، وَلِذَلِكَ مَا تَبْلُغُهُمْ سَيِّئَةٌ عَنْ أَحَدٍ إِلَّا اسْتَسْهَلُوا تَصَوُّرَهَا فِيهِ لَا اسْتَسْهَلَهُمُ الْعَمَلُ بِهَا فِي أَنْفُسِهِمْ، كَمَا قِيلَ:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ

وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِهِ

وَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي شَرْحِهِ: «لَمَّا قَبَحَتْ فِعْلَاتُهُ، وَخَنَظَلَتْ نَخْلَاتُهُ، لَمْ يَزَلْ سُوءُ الظَّنِّ يَقْتَادُهُ، وَيُصَدِّقُ تَوَهُّمَهُ الَّذِي يَعْتَادُهُ».

مَعَ أَنَّ الْاِشْتِرَاكَ فِي السُّوءِ لَا يُنْجِي مِمَّا يَسُوءُ يَوْمَ تَجَدُّ كُلِّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ؛

لَأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

٣- مِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى ضَرُورَةَ التَّفَقُّنِ لِمَكَائِدِ غَيْرِهِ،
فِيَلْتَبِسَ عَلَيْهِ أَمْرُ التَّكْيُسِ وَسُرْعَةُ الْفِطْنَةِ مَعَ اتِّبَاعِ الظُّنُونِ
الْمَرْجُوحَةِ، وَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ الْجَمْعُ بَيْنَ التِّيَقُّظِ لِلْعَدُوِّ - الَّذِي
جَاءَ تَسْمِيَّتُهُ فِي بَعْضِ الْأَثَارِ بِالْحَزْمِ - وَبَيْنَ عَدْلِهِ فِيهِ إِلَّا
بَنَوْعِ ظُلْمٍ لِلْمَظْنُونِ بِهِ، فَكَمْ دَفَعَ تَعَجُّلُهُ لِكَشْفِ عَيْبٍ مَنِ
اسْوَدَّ قَلْبُهُ عَلَيْهِ إِلَى الْجِنَايَةِ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمَشْيِ فِي النَّاسِ
ب (قِيلَ وَقَالَ)، وَلَوْ تَيَقَّنَ أَنَّ الْمَاكِرَ بِهِ لَا يَطُولُ بِهِ الزَّمَانُ
حَتَّى يَرْجِعَ مَكْرُهُ عَلَيْهِ لَمَا قَفَا مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ؛ لَأَنَّ اللَّهَ
يَقُولُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، بَلْ مَهْمَا
كَتَمَ الْمَاكِرُ مَكْرَهُ فَضَحَهُ اللَّهُ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ؛ كَمَا قَالَ ﷻ:
﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]، وَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ
مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤]، فَتَكُونُ النَّتِيجَةُ: التَّعَامُلُ
مَعَ الظُّلْمِ بِالظُّلْمِ! فَمَتَى يُنْصَرُ إِذْنٌ؟!

والمسيء الظنَّ بغيره بلا بينة وتعامله معهم بالتهم ظلم، ومعلوم أنَّ المظلوم منصور ولو كان كافراً، وقد حصل ما يدلُّ عليه في العهد النبوي، بحيث اتُّهمت مملوكة كافرة بسرقة حليٍّ وهي بريئة، روى البخاري (٤٣٩) عن عائشة أنَّ وليدة كانت سوداء لحِيٍّ من العرب، فأعتقوها فكانت معهم، قالت: فخرجت صبيةً لهم عليها وشاح أحمر من سُيور^(١)، قالت: فوضعتَه أو وقعَ منها، فمرت به حديّاة^(٢) وهو مُلقَى فحسبته لحماً فخطفته، قالت: فالتمسوه فلم يجدوه، قالت: فاتهموني به، قالت: فطفقوا يُفتشون حتَّى فتشوا قبلها، قالت: والله! إنِّي لقائمةٌ معهم إذ مرتِ الحديّاةُ فألقته، قالت:

(١) قال ابن حجر في «الفتح» (٥٣٤ / ١) في تعريفِ الوشاح: «خِطَانٍ مِنْ لَوْلُؤٍ يُخَالَفُ بَيْنَهُمَا وَتَتَوَشَّحُ بِهِ الْمَرْأَةُ، وَقِيلَ: يُنْسَجُ مِنْ أَدِيمٍ عَرِيضًا وَيُرْصَعُ بِاللُّلُؤِ وَتَشُدُّ الْمَرْأَةُ بَيْنَ عَاتِقِهَا وَكَشْحِهَا» أي إلى الخاصرة.

(٢) وفي «الفتح» أيضًا: «تَصْغِيرُ حَدَاةٍ بِالْهَمْزِ بَوَازِنِ عِنَبَةٍ وَبِحُجُوزٍ فَتَحُ أَوَّلَهُ، وَهِيَ الطَّائِرُ الْمَعْرُوفُ الْمَأْذُونُ فِي قَتْلِهِ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ».

فَوَقَعَ بَيْنَهُمْ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: هَذَا الَّذِي اتَّهَمْتُمُونِي بِهِ -
زَعَمْتُمْ - وَأَنَا مِنْهُ بَرِيئَةٌ وَهُوَ ذَا هُوَ! قَالَتْ: فَجَاءَتْ إِلَى
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَسْلَمَتْ.

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَ لَهَا خِבَاءٌ فِي الْمَسْجِدِ أَوْ حِفْشٌ^(١)،
قَالَتْ: فَكَانَتْ تَأْتِينِي فَتَحَدِّثُ عِنْدِي، قَالَتْ: فَلَا تَجْلِسُ
عِنْدِي مَجْلِسًا إِلَّا قَالَتْ:

وَيَوْمَ الْوِشَاحِ مِنْ تَعَاجِيبِ رَبَّنَا

أَلَا إِنَّهُ مِنْ بَلَدَةِ الْكُفْرِ أَنْجَانِي

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لَهَا: مَا شَأْنُكَ لَا تَقْعَدِينَ مَعِيَ
مَقْعَدًا إِلَّا قُلْتَ هَذَا؟ قَالَتْ: فَحَدَّثْتَنِي بِهَذَا الْحَدِيثِ».

لَعَلَّ هَذِهِ الْوَلِيدَةَ رَأَتْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ صَالِحِ الْأَخْلَاقِ أَنْ
تُتَّهَمَ بِمَجَرَّدِ الظَّنِّ وَأَنْ تُهَانَ حَتَّى تُفْتَشَ بِتِلْكَ الطَّرِيقَةِ،
فَأَحْزَنَهَا ذَلِكَ حَتَّى بَرَّأَهَا اللَّهُ بِطَرِيقَةٍ عَجِيبَةٍ، وَكَانَ ذَلِكَ

(١) وفي «الفتح» أيضًا: «والخِباءُ: الخِيْمَةُ مِنْ وَبَرٍ أَوْ غَيْرِهِ... وَالْحِفْشُ:

الْبَيْتُ الصَّغِيرُ الْقَرِيبُ السُّمَكِ».

سَبَبَ إِسْلَامِهَا؛ لِأَنَّهَا عَلِمَتْ أَنَّهُ لَنْ تَكُونَ مِثْلُ هَذِهِ التَّبَرُّةِ
إِلَّا مِنْ فِعْلِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ يَوْجَدُ فِي السَّمَاءِ الْأُلُوفَ الْمُؤَلَّفَةَ مِنَ
الطُّيُورِ، فَكَيْفَ يَأْتِي ذَلِكَ الطَّائِرُ السَّارِقُ نَفْسَهُ مِنْ بَيْنِهَا
لِيَضَعَ الْوِشَاحَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُتَّهَمِينَ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْأَمْرُ لَهُ!

قَالَ ابْنُ رَجَبٍ فِي «فَتْحِ الْبَارِي» (٣/ ٢١٩): «وَفِي
الْحَدِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ يُفَرِّجُ كُرْبَاتِ الْمَكْرُوبِينَ
وَيُخْرِقُ لَهُمُ الْعَوَائِدَ وَإِنْ كَانُوا كُفَّارًا... فَإِنْ كَانَ الْكَافِرُ
مَظْلُومًا كَهَذِهِ الْمَرَأَةِ فَهُوَ أَقْرَبُ إِلَى تَفْرِيجِ كُرْبَتِهِ وَاجَابَةِ
دَعْوَتِهِ؛ فَإِنَّ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ قَدْ تُجَابُ مِنَ الْكَافِرِ».

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ كَلِمَةٍ تُقَالُ أَوْ تُكْتُبُ فِي مَقَالٍ يَنْقُلُهَا أَمَنَةٌ
كِرَامٌ كَاتِبُونَ إِلَى الْحَكَمِ الْعَدْلِ الْمُتَعَالِ الَّذِي قَالَ: ﴿مَا يَلْفِظُ
مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وَمَا يَتَحَمَّلُهُ الْفُؤَادُ مِنْ
خَبِيرٍ، وَمَا يَشْهَدُ بِهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ، إِلَّا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ
يَوْمَ تَشْخَصُ الْأَبْصَارُ، وَلَا يَنْفَعُ فِيهِ نَدَمٌ وَلَا اسْتِغْفَارٌ؛ قَالَ
اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ

كُلُّ أَوْلِيَّكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿ [الإسراء: ٣٦]، وَقَالَ: ﴿سَتَكُنُّ
شُهَدَاءَهُمْ وَيَسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقد مرَّ بنا أنَّ اتِّبَاعَ الْأَخْبَارِ غَيْرِ الثَّابِتَةِ بِالدَّلِيلِ الْوَاضِحِ
يُعْتَبَرُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أَكْذَبَ الْكَذِبِ، وَمرَّ بنا قَوْلُهُ ﷺ:
«كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

وَإِذَا كَانَ فِي إِثْمِ هَذَا الْكَذِبِ كِفَايَةٌ، فَكَيْفَ يَطْمَعُ الْمُؤْمِنُ
أَنْ يَرْفَعَ اللَّهُ عَنْهُ ظُلْمَ خَصْمِهِ وَقَدْ شَبَعَ إِثْمًا بظُنُونِهِ وَاكْتَفَى؟!

علاجُ سوءِ الظَّنِّ

١ - أن يَتَثَبَّتَ قَبْلَ أن يَحْكَمَ على غَيْرِهِ، فَإِنَّ العَجَلَةَ قد تَسْتَفْزُ صاحبَهَا ليقُولَ ما لَيْسَ له به عِلْمٌ، ثُمَّ سُرْعَانَ ما يَنْدُمُ ويأْخُذُ في البَحْثِ عن الأعْذارِ، لَكِنَّ الكَلِمَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ خَدْرِها صَعَبَ تَدَارُكُها.

فعن أَبِي أَيُّوبَ قَالَ: «جاءَ رَجُلٌ إلى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! عَلِّمْنِي وَأَوْجِزْ، قَالَ: إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مَوْدَعٍ، وَلَا تَكَلِّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَه (٤١٧١) وَحَسَّنَهُ الْأَلْبَانِيُّ.

وقد يَزِيدُ على هَذِهِ السَّيِّئَةِ البَحْثَ عن المَخارجِ عندِ الاعتِذارِ ولو بالكَذِبِ؛ لِأَنَّهُ «قُلَّ مَنْ اعتَذَرَ إِلَّا كَذَبَ»، قاله مَيْمُونُ بنُ مِهْرانٍ رَوَاهُ عنه الخَرائِطِيُّ في «مساوئِ الأَخلاقِ ومذمومِها» (٦٨٣)، فتَأَمَّلْ كيفَ جَرَّ كَلَامٌ غَيْرُ مُتَثَبِّتٍ فيه إلى سوءِ ظَنٍّْ، ثُمَّ الطَّعْنِ في عَرَضِ مَصُونٍ، ثُمَّ

الكذب، والله المستعان.

قال ابن حجر رحمه الله: «إِنَّ الَّذِي يَتَصَدَّى لَضَبِطِ الْوَقَائِعِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَالرِّجَالِ يَلْزُمُهُ التَّحَرِّيُّ فِي النَّقْلِ، فَلَا يَجْزِمُ إِلَّا بِمَا يَتَحَقَّقُهُ، وَلَا يَكْتَفِي بِالنَّقْلِ الشَّائِعِ...» نقلًا عن «ذيل التبر المسبوك» للسَّخاوي (ص ٤).

فإِذَا كَانَ الْوَصْفُ السَّيِّئُ لِحُصْمِهِ مَبْنِيًّا عَلَى «قِيلَ وَقَالَ» فَقَدْ غَمَسَ لِسَانَهُ فِي بَرَكَةِ الْأَوْهَامِ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَقَدْ نَحَى عَنْهُ مِنْ سَيِّئَاتِهِ بِقَدَرِ مَا أَعْطَاهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِيهِ لَوْ كَانَ صِدْقًا لَكَانَ إِثْمًا مِنْ جِهَةِ الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ كَمَا مَرَّ فِي هَذَا الْكِتَابِ، فَكَيْفَ وَقَدْ يَكْذِبُ مِنْهُ الْكَثِيرُ؟!

وقد نهى النَّبِيُّ ﷺ عن الِاعْتِمَادِ عَلَى مَا يُزَعَمُ مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ؛ سُئِلَ أَبُو مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي (زَعَمُوا)؟ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوهَا» رواه أبو داود (٤٩٧٤) وصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيْحَةِ» (٨٦٦).

قال البغوي في «شرح السنة» (١٢ / ٣٦٢): «فأمر النبي ﷺ بالتَّثَبُّتِ فيما يحكيه، والاحتياط فيما يرويه».

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في «الرياض الناضرة» (ص ٢٠٩): «من الغلط الفاحش الخطر قبول قول الناس بعضهم ببعض، ثم يبنى عليه السامع حباً وبغضاً، ومدحاً وذمّاً، فكم حصل بهذا الغلط من أمورٍ صار عاقبتها الندامة! وكم أشاع الناس عن الناس أموراً لا حقيقة لها بالكلية! فالواجب على العاقل التَّثَبُّتُ والتَّحَرُّزُ وعدم التسرع، وبهذا يُعرف دينُ العبد ورزاقته وعقله».

وقد قيل:

فما آفةُ الأخبارِ إلا غوائها وما آفةُ الأخبارِ إلا روائها
هذا إن كان بحاجةٍ إلى تثبُّتٍ؛ إذ ليس كلُّ ما أُسندَ إلى
الناسِ احتيجَ فيه إلى التَّثَبُّتِ؛ لأنَّه قد يسعه الاكتفاء بالآتي:

٢- أن يلتمسَ المسلمُ لأخيه الأعذارَ ما استطاعَ إلى

ذَلِكَ سَبِيلًا، وَهَذَا شَيْءٌ تَجُودُ بِهِ النُّفُوسُ الْمُنْشِرِحَةُ لِلْخَيْرِ،
ذَاتِ الْأَفئِدَةِ الْفِيَّاضَةِ بِالرَّحْمَةِ لِلْغَيْرِ.

فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مَدَارَةِ النَّاسِ» (٤٥)
وَالْمَحَامِلِي فِي «أَمَالِيهِ» (٤٤٧) عَنْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
أَنَّهُ قَالَ: «لَا تَظَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ فِي امْرِئٍ مُسْلِمٍ سُوءًا
وَأَنْتَ تَجِدُ لَهَا فِي الْخَيْرِ مَحْمَلًا»، وَذَكَرَ السِّيُوطِيُّ فِي «الدُّرِّ
الْمَشْهُورِ» أَنَّ أَحْمَدَ أَخْرَجَهُ فِي «الزَّهْدِ»، وَهُوَ أَثَرٌ صَحِيحٌ؛ فَقَدْ
رَوَاهُ أَيْضًا - ضَمِنَ كَلَامٍ كَثِيرٍ - الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي
«الْمُتَّفَقِ وَالْمُفْتَرَقِ» (١٤١) وَابْنُ عَسَاكِرٍ فِي «تَارِيخِ دِمَشْقِ»
(٣٦٠ / ٤٤) وَابْنُ النَّجَّارِ كَمَا فِي «ذِيلِ تَارِيخِ بَغْدَادِ»
(٢٣١ / ١٧) وَالزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ فِي «الْمَوْفَّقِيَّاتِ» كَمَا فِي «الدُّرِّ
الْمَشْهُورِ» بِإِسْنَادٍ حَسَنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيْبِ قَالَ: «وَضَعَ
عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلنَّاسِ ثَمَانِ عَشْرَةَ كَلِمَةً حِكْمٌ
كُلُّهَا، قَالَ: مَا عَاقَبْتَ مَنْ عَصَى اللَّهَ فَيْكَ بِمِثْلِ أَنْ تُطِيعَ اللَّهَ
فِيهِ، وَضَعَ أَمْرَ أَخِيكَ عَلَى أَحْسَنِهِ حَتَّى يَجِيئَكَ مِنْهُ مَا

يَغْلِبُكَ، وَلَا تَظَنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجْتَ مِنْ مُسْلِمٍ شَرًّا وَأَنْتَ
تَجِدُهَا فِي الْخَيْرِ مُحْمَلًا، وَمَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ فَلَا
يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ، وَمَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ فِي
يَدِهِ، وَعَلَيْكَ بِإِخْوَانِ الصَّدَقِ تَعِشْ فِي أَكْنَافِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ زِينَةٌ
فِي الرَّخَاءِ وَعُدَّةٌ فِي الْبَلَاءِ، وَعَلَيْكَ بِالصَّدَقِ وَإِنْ قَتَلَكَ،
وَلَا تَعْرِضْ فِيهَا لَا يَغْنِي، وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا لَمْ يَكُنْ؛ فَإِنَّ فِيهَا
كَانَ شُغْلًا عَمَّا لَمْ يَكُنْ، وَلَا تَطْلُبَنَّ حَاجَتَكَ إِلَى مَنْ لَا يَحِبُّ
نَجَاحَهَا لَكَ، وَلَا تَهَاوَنْ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ فَتَهْلِكَ، وَلَا
تَصْحَبِ الْفَجَّارَ لَتَعْلَمَ مِنْ فُجُورِهِمْ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ،
وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ خَشِيَ اللَّهَ،
وَتَخَشَّعَ عِنْدَ الْقُبُورِ، وَذَلَّ عِنْدَ الطَّاعَةِ، وَاسْتَعَصِمَ عِنْدَ
الْمُصِيبَةِ، وَاسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ
يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]،
وَأَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «الشَّعْبِ» (٨٣٤٥) عَنْ سَعِيدِ بْنِ
الْمُسَيْبِ قَالَ: «كُتِبَ إِلَيَّ بَعْضُ إِخْوَانِي مِنْ أَصْحَابِ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ...» وذكره نحو الأثر السابق.

وروى أبو الشيخ في «التوبيخ والتنبه» (١٤٧) وأبو نعيم (٢٧٧/٥) بسند صحيح أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: «أحسن بصاحبك الظن ما لم يغلبك».

وفي «الإشراف على منازل الأشراف» (٢١٦) و«مدارة الناس» (٣٩) كلاهما لابن أبي الدنيا عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: قال لي أبي: «يا بُني! إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً من الخير» وسنده صحيح لولا عننة ابن جريج، لكن تابعه عمر بن حفص عند أبي نعيم في «الحلية» (٢٧٧/٥).

وفي «مدارة الناس» أيضاً (٤١) عنه أنه قال: «أعقل الناس أعذرهم لهم».

وفيه أيضاً (٤٠) وفي «الزهد» لهناد (١٢٢٥) و«أمالى ابن سمعون» (١٤١) و«شعب الإيمان» للبيهقي (٨٣٣٦)

عن أبي قلابة قال: «التَّمَسْ لِأَخِيكَ الْعُذْرَ بِجَهْدِكَ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ لَهُ عُذْرًا فَقُلْ: لَعَلَّ لِأَخِي عُذْرًا لَا أَعْلَمُهُ».

وفي «الشعب» أيضًا (٨٣٤٢) و«التَّوْبِيخُ وَالتَّنْبِيهُ» لأبي الشَّيْخ (٩١) عن ابن سيرين رحمته مثله.

وفي «الشعب» أيضًا (٨٣٤٤) عن جعفر بن محمد قال: «إِذَا بَلَغَكَ عَنْ أَخِيكَ الشَّيْءُ تُنْكِرُهُ فَالْتِمِسْ لَهُ عُذْرًا وَاحِدًا إِلَى سَبْعِينَ عُذْرًا، فَإِنْ أَصَبْتَهُ وَإِلَّا قُلْ: لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا لَا أَعْرِفُهُ».

وفي «آداب الصُّحْبَةِ» لأبي عبد الرحمن السُّلَمِي (١٢) وعنه البيهقي في «الشعب» (١١١٩٨) عن حمدون القصار قال: «إِذَا زَلَّ أَخٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فَاطْلُبُوا لَهُ سَبْعِينَ عُذْرًا، فَإِنْ لَمْ تَقْبَلْهُ قُلُوبُكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ الْمَعِيبَ أَنْفُسُكُمْ؛ حَيْثُ ظَهَرَ لِمُسْلِمٍ سَبْعُونَ عُذْرًا فَلَمْ تَقْبَلْهُ»، فانظر كيف تَوَاصَى السَّلَفُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ!

وهَذَا شَبِيهٌ بِمَا رَوَاهُ فِي «آدَابِ الصُّحْبَةِ» أَيْضًا (١١) عَنْ

عبد الله بن محمد بن منازل قال: «المؤمن يطلب معاذير إخوانه، والمنافق يطلب عثرات إخوانه»، ولذلك قيل: المؤمن معذار، والمنافق معثار.

وأخرج ابن سعد (٢٠٩/٧) بسند حسن أن بكرًا المزني كان يقول: «إياك من كلام ما إن أصبت فيه لم تؤجر، وإن أخطأت وزرت، وذلك سوء الظن بأخيك»، وعنه كما في «التوبيخ والتنبيه» (٩٢) قال: «احملوا إخوانكم على ما كان فيهم، كما تُحِبُّون أن يحملوكم على ما كان فيكم، فليس كل من رأيت منه سقطة أو زلة وقع من عينيك؛ فأنت أولى من يرى ذاك منه».

ومن الأمثلة التي تبين طريقة العلماء في حسن الظن بغيرهم ما رواه ابن أبي حاتم في «مناقب الشافعي» (ص ٢٧٤) عن الربيع قال: «دخلت على الشافعي - وهو مريض - فقلت: قوى الله ضعفك، فقال: لو قوى ضعفي قتلني! قلت: والله! ما أردت إلا الخير! قال: أعلم أنك لو

شَتَمْتَنِي لَمْ تُرِدْ إِلَّا الْخَيْرَ»، وفي رواية: «قُلْ: قَوَّى اللَّهُ قَوَّتَكَ، وَضَعَّفَ ضَعْفَكَ».

قال ابن تيمية في «الرَّد على البكري» (٢/ ٦٦٣): «فإنَّ الشَّافِعِيَّ نَظَرَ إِلَى حَقِيقَةِ اللَّفْظِ وَهُوَ نَفْسُ الضَّعْفِ، وَالرَّيْبُ قَصْدٌ أَنْ يُسَمِّيَ الضَّعِيفَ ضَعْفًا كَمَا يُسَمِّي الْعَادِلُ عَدْلًا، ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ الشَّافِعِيُّ بِحُسْنِ قَصْدِهِ أَوْجَبَ أَنْ يَقُولَ: لَوْ سَبَبْتَنِي صَرِيحًا - أَيْ صَرِيحًا فِي اللَّغَةِ - لَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تَقْصِدْ إِلَّا خَيْرًا، فَقَدَّمَ عَلَيْهِ عِلْمَهُ بِحُسْنِ قَصْدِهِ وَلَمْ يَجْعَلْ سَوْءَ الْعِبَارَةِ مُنْقَصًا، وَقَدْ يَسْبِقُ اللِّسَانُ بغير ما يَقْصِدُ الْقَلْبُ كَمَا يَقُولُ الدَّاعِي مِنَ الْفَرَحِ: (اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ)، وَلَمْ يُؤَاخِذْهُ اللَّهُ».

وروى ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٠٦) الخرائطي في «مساوئ الأخلاق ومذمومها» (٦٨٤) عن ابن عون قال: «اعتذر رجلٌ عند إبراهيم (أي النخعي)، فقال: قد عذرتناك غير مُعتذرٍ؛ إِنَّ الْإِعْذَارَ يُخَالِطُهُ الْكَذِبُ»، فَجَمَعَ

بين حُسن الظَّنِّ بالرجل والرحمة به كي يُجنبه الذنب.

هكذا تكون الصدورُ السَّليمةُ البريئةُ من الأحقادِ، روى

ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٥٧) عن زيد بن أسلم قال: «دُخِلَ على أبي دُجانة وهو مريضٌ وكان وجهه يتهلَّل، ف قيل له: مَا لَوْجِهِكَ يَتَهَلَّل؟ فقال: مَا مِنْ عَمَلِي شَيْءٍ أَوْثَقَ عِنْدِي مِنْ اثْنَتَيْنِ، أَمَّا إِحْدَاهُمَا فَكَنتُ لَا أَتَكَلَّمُ فِيهَا لَا يَعْنِينِي، وَأَمَّا الْأُخْرَى فَكَانَ قَلْبِي لِلْمُسْلِمِينَ سَلِيمًا».

وروى وكيعٌ في «أخبار القضاة» عن معاوية بن قرة قال: «كَانَ أَفْضَلُهُمْ - يَعْنِي الْمَاضِينَ - أَسْلَمَهُمْ صَدْرًا، وَأَقْلَهُمْ غِيْبَةً».

وفي «طبقات الأولياء» (ص ٢٦٧) لابن الملتن عن الفضيل بن عياض رحمته قال: «مَا أَدْرَكَ عِنْدَنَا مَنْ أَدْرَكَ بِكَثْرَةِ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ، وَلَكِنْ بِسَخَاءِ النَّفْسِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ وَالنُّصْحِ لِلْأُمَّةِ».

وقال ابنُ حِبَّانٍ رحمته في «روضة العقلاء» (ص ١٢٦):

«التَّجَسُّسُ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ كَمَا أَنَّ حُسْنَ الظَّنِّ مِنْ شُعَبِ
الإِيمَانِ، والعَاقِلُ يُحَسِّنُ الظَّنَّ بِإِخْوَانِهِ وَيَنْفَرِدُ بِغُموِمِهِ
وَأَحْزَانِهِ، كَمَا أَنَّ الْجَاهِلَ يُسِيءُ الظَّنَّ بِإِخْوَانِهِ وَلَا يُفَكِّرُ فِي
جَنَايَاتِهِ وَأَشْجَانِهِ».

وَقَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ عَثِيمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي
«الشَّرْحِ الْمُتَمَعِّ» (٥ / ٣٠٠): «يُسْتَحَبُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَظُنَّ
بِالْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، وَإِذَا وَرَدَتْ كَلِمَةٌ مِنْ إِنْسَانٍ تَحْتَمِلُ الْخَيْرَ
وَالشَّرَّ فَاحْمِلْهَا عَلَى الْخَيْرِ مَا وَجَدْتَ لَهَا مَحْمَلًا، وَإِذَا حَصَلَ
فَعَلْ مِنْ إِنْسَانٍ يَحْتَمِلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَاحْمِلْهُ عَلَى الْخَيْرِ مَا
وَجَدْتَ لَهُ مَحْمَلًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُزِيلُ مَا فِي قَلْبِكَ مِنَ الْحَقْدِ
وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ وَيُرِيحُكَ».

فَإِذَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُكَلِّفْكَ أَنْ تَبْحَثَ وَتُنَقِّبَ، فَاحْمَدِ اللَّهَ
عَلَى الْعَافِيَةِ، وَأَحْسِنِ الظَّنَّ بِإِخْوَانِكَ الْمُسْلِمِينَ وَتَعَوَّذْ مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وَأَمَّا مَا يُذَكَّرُ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «احْتَرِسُوا

مِنَ النَّاسِ بِسَوْءِ الظَّنِّ»، فَهَذَا كَذِبٌ لَا يَصَحُّ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، بَلْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا يُحَدِّثُنِي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا؛ فَإِنِّي أَحَبُّ أَنْ أَخْرَجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»^(١)، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِالْمُسْلِمِ.

أَمَّا مَنْ فُتِنَ -وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَصَارَ يَتَّبِعُ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَيَبْحَثُ عَنْهَا، وَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَحْتَمِلُ الشَّرَّ وَلَوْ مِنْ وَجْهِ بَعِيدٍ طَارَ بِهِ فَرَحًا وَنَشْرَهُ، فَلْيُبَشِّرْ بَأَنَّ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ فَضَحَّهَ وَلَوْ فِي جُحْرِ بَيْتِهِ».

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٦٠) وَالتِّرْمِذِيُّ (٤١٦٩)، وَلَعَلَّ الشَّيْخَ رحمته الله يُثَبِّتُ الْحَدِيثَ مَعَ أَنَّ فِي إِسْنَادِهِ مَجْهُولًا، وَقَدْ ضَعَّفَهُ التِّرْمِذِيُّ وَوَافَقَهُ الْأَلْبَانِيُّ عَلَى ذَلِكَ فِي تَحْقِيقِهِ لِلْمَصْدَرَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، وَلَمْ أَقُلْ: لَعَلَّهُ يَتَسَاهَلُ فِي رِوَايَةِ الْحَدِيثِ الضَّعِيفِ فِي فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الشَّيْخَ لَا يَرَى ذَلِكَ كَمَا فِي شَرْحِهِ لِلْمَنْظُومَةِ الْبَيْقُونِيَّةِ عِنْدَ تَعْرِيفِ الْحَدِيثِ الضَّعِيفِ.

يُشِيرُ ﷺ إِلَى حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «صَعَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ مَنْ قَدْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الْإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ! لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تُعَيِّرُوهُمْ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ، قَالَ: وَنَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ فَقَالَ: مَا أَعْظَمَكَ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكَ! وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٠٣٢) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ، وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٨٠) مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَرزَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ ﷺ فِي «إِعْلَامِ الْمُوقَّعِينَ» (٣/٣٩٦): «إِذَا ظَفَرْتَ بِرَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْ أُولَى الْعِلْمِ، طَالِبٍ لِلدَّلِيلِ مُحْكَمٍ لَهُ، مُتَّبِعٍ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَأَيْنَ كَانَ، وَمَعَ مَنْ كَانَ؛ زَالَتِ الْوَحْشَةُ وَحَصَلَتِ الْأُلْفَةُ، وَلَوْ خَالَفَكَ فَإِنَّهُ يُخَالَفُكَ وَيَعْذُرُكَ، وَالْجَاهِلُ الظَّالِمُ يُخَالَفُكَ بِلَا حُجَّةٍ وَيُكْفِّرُكَ أَوْ يُبَدِّعُكَ بِلَا حُجَّةٍ؛ وَذَنْبُكَ رَغْبَتُكَ عَنْ طَرِيقَتِهِ الْوَحِيمَةِ

وسيرته الذميمة، فلا تغتر بكثرة هذا الضرب؛ فإن الآلاف
المؤلفة منهم لا يعدلون بشخص واحد من أهل العلم،
والواحد من أهل العلم يعدل بمِلء الأرض منهم».

٣- ترك المشي في الناس بالرّيبة: قد جاءت شريعتنا
بأنواع من الاحتياطات - زيادةً على ما سبق - لتجنب هذا
الخلق الذمّيم، من ذلك ما رواه البخاري في «الأدب المفرد»
(٢٤٨) - بسندٍ صحّحه الألباني (١٨٦) - عن معاوية رضي الله عنه
قال: «سمعتُ من النبي ﷺ كلامًا نفَعَنِي اللهُ به، سمعتهُ
يقول: «إِنَّكَ إِذَا اتَّبَعْتَ الرَّيْبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ»، فَإِنِّي لَا
أَتَّبِعُ الرَّيْبَةَ فِيهِمْ فَأُفْسِدُهُمْ»، وقد سلك معاوية رضي الله عنه في
رعيته هذه السّياسة النبويّة حتّى كان محبوبًا عندهم طيلة
أربعين سنةً في ولايته، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «كَلِمَةٌ
سَمِعَهَا مُعَاوِيَةُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَفَعَهُ اللهُ تَعَالَى بِهَا» رواه
أبو داود (٤٨٨٨) وصحّحه الألباني.

وفي هذا المعنى نهى النبي ﷺ المسافر إذا رجع أن يدخل على أهله ليلاً بغتة ليستكشف خيانتهم؛ ففي «صحيح مسلم» (٥٠٧٨) عن جابر قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلاً يتخونهم أو يلمس عثرتهم»، وما لهذا الفعل من دافع سوى سوء الظن، وقد يدفع فعله هذا أهله أيضاً ليسيئوا به الظن، فيعيش أهل البيت على نار الريبة والظنون.

ومن الاحتياطات التي كان يأخذ بها السلف ما أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٦٨) - وصححه الألباني (١٢٥) - عن سلمان رضي الله عنه قال: «إني لأعدُّ العراق على خادمي مخافة الظن»، والعراق جمع عرق، قال الأزهري في «تهذيب اللغة»: «وهي العظام التي اعترق منها هبر اللحم وبقي عليها لحوم رقيقة طيبة، فتكسر وتطبخ... ولحمها من أمراء اللحمان وأطبيها»، ومعناه أنه يعدُّ أمام خادمه الأشياء المتبقية في البيت؛ حتى إذا علم الخادم أن كل شيء

مُحْصَى مِنْ أَهْلِهِ لَمْ تُسَوَّلْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَخْتَلِسَ مِنْهَا، وَحَتَّى
يُدْفَعَ صَاحِبُ الْبَيْتِ عَنْ نَفْسِهِ إِسَاءَةَ الظَّنِّ بِخَادِمِهِ لَوْ ضَاعَ
شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَفِي مَعْنَاهُ مَا أَخْرَجَهُ هُوَ أَيْضًا (١٦٧) -
وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ (١٢٤) - عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ: «كُنَّا نُؤَمِّرُ
أَنْ نَخْتَمَ عَلَى الْخَادِمِ وَنَكِيلَ وَنَعَدَّهَا؛ كَرَاهِيَةً أَنْ يَتَعَوَّدُوا
خُلُقَ سُوءٍ وَيَظُنَّ أَحَدُنَا ظَنًّا سُوءًا».

٤- الاجْتِهَادُ فِي إِنْصَافِ الْخَصْمِ: النَّاسُ أَقْلٌ وَرِعًا بِمَا
لَا يَكَادُ يُقَارَنُ فِي كُلِّ خَبْرٍ لَهُ صِلَةٌ بِالْخَصْمِ، لَا سِيَّمَا مَا كَانَ
فِي ثَلَبِهِمْ وَانْتِقَاصِهِمْ، فَهَاهُنَا تَضَعُ أَنْفُسُهُمْ حَتَّى
يُفَارِقَهُمُ الْإِنْصَافُ.

على الرغم من أنَّ الواحدَ من هؤلاءِ المُتَسَرِّعِينَ فِي
النَّقْلِ، المُشِيعِينَ لِلْأَخْبَارِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا عَدْلٍ، لَوْ عَلِمَ أَنَّ
نَاقِدًا لَهُ نَشَرَ إِحْدَى السَّيِّئَاتِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْقُوقٍ
وَلَا تَرَوٍّ لِسَارَعٍ إِلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ وَطَلَبِ الدَّلِيلِ وَالْبَيِّنَةِ عَلَى
ذَلِكَ وَوَصْفِهِ بِالتَّهَوُّرِ، أَلَا فَكَمَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَظُنَّ فِيهِ

النَّاسُ سُوءًا مِنْ غَيْرِ تَبَيُّنٍ فَلَا يُحْمَلَنَّ قَلْبَهُ عَنْ غَيْرِهِ سُوءًا إِلَّا بَعْدَ تَحْقُوقٍ وَتَبَيُّنٍ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَخَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلِيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُوتَى إِلَيْهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٤٤).

وَهَذَا هُوَ الْمُسْتَوَى الْخُلُقِيُّ لكَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ: حُكْمٌ بِتَعَسُّفٍ؛ مَبْنَاهُ الظَّنُّ وَالتَّكَلُّفُ! وَلَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ، وَأَيَقَنَ أَنَّ عَمَلَهُ مَعْرُوضٌ عَلَيْهِ يَوْمَ قِيَامِهِ بَيْنَ يَدَيِ رَبِّهِ؛ لَأَقْصَرَ عَنِ الْهُجُومِ عَلَى أَعْرَاضِ النَّاسِ بِالظُّنُونِ، رَوَى ابْنُ الْمُقَرَّرِ فِي «الْمَعْجَمِ» (١٦١) عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَتَبَ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ كَلِمَتَيْنِ: مَنْ عَلِمَ أَنَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ أَقَلَّ مِنْهُ إِلَّا فِيمَا يَنْفَعُهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ اجْتَزَأَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْيَسِيرِ، وَالسَّلَامُ».

لَكِنَّ قَلَّةَ الدِّيَانَةِ وَضَعْفَ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ ضَحَالَةِ الْعِلْمِ يُوَرِّدُ صَاحِبَهَا مَوَارِدَ النَّدَمِ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ

النَّدْمُ، وَإِنَّ بَهْتَ النَّاسِ بِالتُّهْمِ سَهْلٌ، وَلَكِنَّ الْإِتْيَانَ عَلَيْهَا
بِالدَّلِيلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُوَ الْعُسْرُ، وَأَيُّ عُسْرٍ! فَكُلُّ تُّهْمَةٍ لَا
تَجْرُؤُ عَلَى تَرْدِيدِهَا يَوْمَ الدِّينِ دَعْوَاهَا الْيَوْمَ فَهُوَ أَسْلَمٌ لَكَ،
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

فهرس

مقدمة	٥
حُسنُ الظَّنِّ وسيئته	١٣
أسبابُ الوقوع في سوءِ الظَّنِّ	٣٨
علاجُ سوءِ الظَّنِّ	٤٦
الفهرس	٦٣

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

